في آن واحد. هنَّ فيه المسجونات حقاً، ولكن لا يمكن تبرئتهن كلية من دور السجانات كذلك. ويتمثل هذا البعد في شخصيتهنَّ أكثرما يتمثل، لا في مسؤوليتهنَّ عن سجنهنَّ فحسب، ولكن في قدرتهنَّ على إغلاق السجن على التهامي حصيرة الذي عرّته «بهجة» من ادعاءاته الزائفة، ثم أحكمتْ مع شقيقتيها رتاجَ السجن عليه.

* * *

والشقيقات الثلاث، باعتبارهن واقعاً واستعارةً معاً، يعشْنَ على هامش التاريخ القومي والشخصي معاً. كلّ ما يجمعهن هو رفضهن للموت. لكن أيكفي رفضُ الموت وازعاً للحياة أو مبرراً للوجود؟ هذا سؤالٌ من أسئلة المسرحية الكبيرة، أسئلة الهوية والمصير. وقد تخبَّط النقادُ التوانسةُ في تأويل المسرحية: فظنَّ أحدهم أنها مسرحية عن الشيخوخة وأخذ يحاكمها وفقاً لتلك الافتراضات التي تصورها عنها؛ وظنّ آخر ان تمزق العلاقات الأسرية بين الشقيقات، والذي بلغ حد القتل، لا يمكن أن يصدر عن أسرة عربية؛ ومن هنا تصوَّرَ أنها قصة أسرة يهودية، وهي من

صراع الشقيقات يومئ إلى نهش الاشقاء العرب بعضهم بعضاً!

مثل هذا التصوير براء. لكّن الذي فات جلَّ هؤلاء النقاد هو أننا لسنا بإزاء مسرحية طبيعية تنسخ الواقع، وإن انطوت على معالجة عميقة لقضاياه، وإنما نحنُ حيالَ استعارةٍ درامية تستخدم الشعرَ المسرحي في أكثر درجاته توتراً وشفافية لسبر أغوار هذا الواقع وتعرية خوافيه والدعوة إلى رؤيته من جديد. فحالة الشيخوخة التي تُبلورها المسرحيةُ تنطوي على شيخوخةِ مجتمعٍ برمته استحالتْ حياتُهُ إلى نوع من انتظار الموت وترقبه. والشبق العارم للحياة يشي بأمل هذا المجتمع في التحقق وقد مرَّغتْهُ تصرفاتُه في التراب فأصبح تحقُّقُه نوعاً من المراهقة الرخيصة. وصراعُ الشقيقات إلى حد الموت يومئ إلى نهش الأشقاء بعضَهُم البعضَ، وإلى الوشاية للغريب والدخيل بإخوتهم بعد أن استحالت الحياةُ عندهم إلى نوع من الشماتة المرضية، وأصبح دافعُهُم الرئيسيُ فيها هو الانتقام الرخيص.

بهذا المنطق الاستعاري تتسع أفُق الدلالات في هذه المسرحية الجميلة التي بلغت فيها الكتابةُ الركحية ذروةً جديدة من ذرى تحققها على يدي الفاضل الجعايبي الذي أبدع عالماً مرعبَ الجمال، يتحكم فيه المخرجُ/المؤلفُ في كل جزئيات العرض، ويتيح للممثلين التألقَ وقد استخرج منهم جميعاً أفضلَ ما عندهم. وتبلغ اللغةُ المسرحيةُ فيه درجةً عالية من الرهافة والشاعرية. ويصبح تجسيدُ هذه اللغة على المسرح تشكلاً جمالياً ممتعاً يبهج العين بمناظره وألوانه وحركته، ويمتع الأذن بموسيقاه ولغته المسرحية، ويحثّ العقل على التأمل والتفكير في واقعنا الإنساني وفي وضعنا العربي الراهن على السواء.

لندن

الفدائي

بدر توفيق

باسم مَنْ
كلُّ هذي الحياة التي دمدمت في إهابكْ
حين طوّقتَ بالديناميت ذراعَيْكَ
ساقيكَ، خصركَ، صدركَ، ظهركَ
وانفجرْتَ بأعوامك العشرين
فتلاشيتَ من هيئة البشر الفانين
وصعدتَ السماء كعاصفة من حمم اليقين
لتردّ الأيادي إلى زرعها
والغصونَ إلى جذعها
والعيونَ إلى دمعها؟

• • •

يا لهذا السحر وهذا العطر!
لكأنك بركان ماء تفجّر في الصخر
بعد سمّ الصبر وكيّ القهر،
أيها الزمزميّ الذي شقّ صحراءنا
فروانا وهشم أغلالنا!
أي أُمٍّ سقتك وأيّ أب سلّحك
فغدوتَ السياق الأصيل
وازدهرت على أفق الروح قوساً من الزهر
وندى من رحيق الفجر
وتجاوزتَ في سرعة الضوء أفكارنا
واشتعلت لتدفئنا وتطهّر بالنار أعضاءنا
وتعيد اللون لأسمائنا
وكنّا نحن منكمشين ومرتعشين
في ضلوع العمر
ورقاب السنين!

القاهرة